على بئر أريس
من ذكريات ربيع الأول في طيبة

في غداة ضاحية من غدوات ربيع الأول، وفي درب هادئ من دروب طيبة المقدسة، خرج الرسول صلوات الله عليه إلى ظاهر المدينة يطلب الخلوة إلى نفسه، والخلوة عند ربه.

وكان صاحب الغار المهجور من جبل النور لا يزال يستحب العزلة، ويستطيب الوحدة، إمعانًا في القرب من الله بالفكر والذكر والتأمل، فجعل وجهه إلى غربي المدينة تلقاء مسجد قباء، ومشى وحده تحوم عليه العيون وتهفو إليه القلوب من وراء الجدر وعلى حواشي الطريق وهو مطأطئ الرأس مطمئن النفس حتى بلغ بئر أريس [1].

وكانت هذه البئر العذبة الرحبة تستكن من الريح والشمس بظله من جريد النخل لها باب منه، وتنظر إلى حقول خضر وبساتين فيح تستمد من مائها المعين النماء والخصب، فهي مستراض ومستراح ومنظر. دخلها الرسول على عادته في كل يوم اثنين دخول المعتكف المسجد، فتوضأ وصلى ثم جلس على قفّها[2] وكان طوله ثلاثة أذرع، واستغرق في عبادة صامتة لا يتخالجها أمر من أمور الدنيا ولا شأن من شئون الناس. ومثل هذه العبادة الروحية النبوية التي تصل الرسول بالله والأرض بالسماء والشريعة بالحقيقة والمحدود باللامحدود، لا يستطيع أن يدرك كنهها العقل القاصر، ولا أن يبلغ وصفها البيان الناقص.

وما كانت عبادة النبي في بئر أريس بعد الهجرة إلا معنى من عبادة محمد في غار حراء قبل البعثة؛ استيحاء لحكمة الله وقدرته أن يؤيد دعوته بروحه، وأن يجمع أمته على كتابه.

* * * * *

(1) حديث بئر أريس الذي جعلناه لبًا لهذا المقال رواه البخاري ومسلم.

(2) قف البئر: الدكة التي تقام من حول رأسها.

وكان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قد أصبح ونيته معقودة على أن يلزم الرسول عامة يومه، جلاء لصدره من صدأ الدنيا، وصفاء لنفسه من كدر العيش، فطلبه في مسجده فلم يجد، فسأل عنه فقيل له: اتخذ طريقه إلى حي قباء. فما زال يتقصص خبره وأثره حتى تأدى إلى بئر أريس، فدخلها فوجد الرسول جالسًا على قفّها وقد كشف عن ساقيه وأدلاهما فيها. فسلم عليه، ثم عقدت لسانه الهيبة والجلالة فارتد إلى الباب وهو يقول لنفسه: لأكونن بواب الرسول هذا اليوم.

وما هي إلا هنيهة حتى دفع الباب دافع. فقال البواب الأواب: مَنْ بالباب؟ فقال: أنا أبو بكر. فقال أبو موسى: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن عليك. وكان صاحب الدعوة حينئذ يستحضر في ذهنه ما لقى في سبيلها من البلاء في نفسه وفي أهله وفي صحبه. وقد مثل في خاطره وفاء المهاجرين بعدهم إلى الله، واحتمالهم الغربة والفاقة والقلة والأذى ابتغاء مرضاته، فأكبر ما فعلوه وما بذلوه. وما هو إلا أن سمع أبا موسى يذكر اسم صديقه في الدار وصاحبه في الغار حتى قال له: ائذن له وبشره بالجنة. فلما أخبره بالإذن والبشرى دخل فجلس عن يمين رسول الله فوق القفّ وحذا حذوه، فكشف عن ساقيه وأدلاهما في البئر. ورجع الأشعري إلى مقامه بالباب، وكان قد ترك أخاه يتوضأ ليلحق به عند الرسول، فقال في نفسه: إن يرد الله خيرًا بأخي يأت به. يرجو أن ينال من هذا الفيض النبوي ما ينفعه في آخرته. ولكن الله أراد هذا الخير لعمر، فقد كان في تلك اللحظة وراء الباب يحركه، فلما قال أبو موسى في سرعة ولهفة: مَنْ هذا؟ قال: أنا عمر بن الخطاب، فقال: على رِسلك يا عمر. ومضى إلى الرسول يستأذن فقال له عليه صلوات الله وسلامه: ائذن له وبشره بالجنة! فدخل عمر وجلس على القف عن يسار الرسول وصنع ما صنع. وعاد الأشعري إلى الباب يتسمع من ورائه أن تدب رجل أن يندَّ صوت رجاة أن يكون أخوه قد قدم. فلم يمض غير يسير حتى لقلق الباب إنسان، فخفق فؤاد أبي موسى وضاء بالأمل وجهه، وصاح: مَنْ القادم؟ فقال: أنا عثمان ابن عفان. فاستأناه وعاد إلى الرسول يستأذن له. فقال من اصطفاه الله لحمل رسالته وارتضاه لعلم غيبه: ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه، فلما بشره وأنذره دخل الشهيد على

الثلاثة فلم يجد معهم مجلسًا على القف. فتحول حتى جاء قبالتهم من الشق الآخر وجلس، ثم كشف عن ساقيه وأدلاهما في البئر.

وهكذا شاء الله أن يجتمع في هذه البئر الباضة بالخير النابضة بالحياة، في وسط هذه الرمال القاحلة والصخور الصلدة، خمسة نفر كان لهم في حياة العروبة أثر بالغ، وفي تاريخ الإنسانية خطر أبلغ: خليفة الله الذي قاد بنوره ركب البشرية التائه العامة في الطريق الأقوم إلى الغاية الأكرم؛ وخليفتا الرسول اللذان حملا دعوته من بعده فلأما صدعها يوم السقيفة، وقوَّيا ضعفها سنة الردة، ونشرا ضوءها وراء الجزيرة؛ وخليفة الشورى الذي صدقت فيه نبوءة الرسول فأصابته البلوى التي فرقت الكلمة ومزقت الأمة؛ وقاضى التحكيم الذي داهاه ابن العاص وداوره حتى حكم حكمًا جعلت نتيجته الخلافة خلافتين والأمة أمتين والدين المحكم القيم اثنتين وسبعين فرقة !.

* * * * *

على أن بئر أريس كانت لها في حياة الخليفة الثالث دلائل خاصة: فجلوس الرسول والعمرين معًا على شق، وجلوسه منفردًا قبالتهما على شق؛ تأوله سعيد بن المسيب باجتماع قبور الثلاثة في حجرة عائشة وانفراد قبره هو في موضع آخر، وإنذار الرسول إياه بالبلوى التي أصابته وأصابت المسلمين معه كان طائفًا من الهم يعتاده الحين بعد الحين فلا يصرفه عنه إلا اعتقاده الوثيق بالله، وإيمانه العميق بالقدر؛ وإمضاؤه النية على الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه. ثم سقوط الخاتم النبوي من يده في هذه البئر كان نذير شؤم ومثار قلق؛ فقد كان محمد خاتم النبيين قد اتخذ خاتمًا من فضة جعله في يده بقية حياته، ثم كان في يد أبي بكر مدة خلافته، ثم تختم به من بعده عمر، ثم انتقل من يده بعد مصرعه إلى يد عثمان. فكان معتزًا به حريصًا عليه، حتى ذهب يومًا إلى بئر أريس يجلس في مجلس الرسول وينعم بذكرى يومه فيه. وكانت هذه الزيادة ديدنه كما كانت ديدن الصديق والفاروق منذ اجتمعوا فيه برسول الله. فأخرج الخاتم من إصبعه وجعل يعبث به فسقط في الماء. واختلف هو والناس إلى البئر ثلاثة أيام ينزحونها ويبحثون فيها فلم تقع يد عليه، كأنما ضنت به الأرض فابتلعته، أو تاقت إليه السماء فرفعته، فاكتأب عثمان ووقع في نفسه أن قوة كانت تسنده غابت في الماء؛ وأن نورًا كان

يرشده تبدد في الريح، وأن الخاتم النبوي كان في يده عقدة تمسك عليه الناس وتريض له الأمر، فتمضي خلافته كما مضت خلافتا الشيخين في وحدة لا تشت وعروة لا تنفصم وسبيل لا تجور. فلما سقط منه في البئر وأعجزه الحصول عليه لم ييأس من روح الله، ولكن شكًا اختلج في نفسه الراضية المطمئنة ألا يكون كعمر بطل السقيفة، وأبي بكر بطل الردة، صلابة رأي وصرامة عزيمة، ففوض الأمر إلى بعض أهله فحكموا الناس بالهوى وفرقوهم بالمصيبة وساسوهم بالمحاباة، حتى اضطرب الحبل وشاعت الفتنة وقتله الثوار في داره وعلى مصلاه قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر.

كانت هذه الدلائل رموزًا من لغة القدر خطها على صفحة وجهه وفي صحيفة حياته يوم جلس وحده تجاه الرسول وصاحبيه على بئر أريس، فسرتها الأحداث رمزًا بعد رمز، وكابدها ممول جيش العسرة دلالة بعد دلالة. وما كانت فراسة الرسول الكريم في عثمان ومآله سواء أكانت إعلامًا من الوحي أم إلهامًا من الروح إلا دليلاً على ألمعية في القائد الأعظم تكشف ما استكن من سر الطباع، وتعلم ما استسر من عقبى الحوادث. ولولا هذه الألمعية المستمدة من علم الله أو من لقانة الرسول لما تسنى لصاحب الرسالة أن يختار أسنادها وأمدادها من هذه الصفوة القليلة من المهاجرين الذين غرس في قلوبهم البذرة، ووضع في أيديهم الشعلة، وألقى على كواهلهم التبعة، ثم لحق بالرفيق الأعلى، وهو ينظر إليهم من ستور النور وهم يرفعون مسجده فوق إيوان كسرى، وينصبون منبره على عرش قيصر.